

و عند حصول العقل على هذه الأفكار، يوظفها كمواد أولية لإنتاج أفكار جديدة، وهنا فقط يظهر الدور الفعال و الإيجابي للعقل، أي تكون له القدرة على إيجاد أفكار جديدة. يسميها "لوك" بالأفكار المركبة. « فالإنسان باستطاعته أن يكون فكرة جديدة من فكرتين أو أكثر من الأفكار البسيطة... و بطريقة إرادية، و يمكن اعتبار ذلك فكرة واحدة و باسم واحد»⁽¹¹³⁾. فمثلاً، حينما نقوم بجمع الأفكار البسيطة الآتية: البياض، الحلاوة، الصلابة... فإننا نحصل على فكرة مركبة عن قطعة السكر، لنعتبرها بعد ذلك، فكرة واحدة لها اسم واحد يشير لها ككل.. و العقل في تكوينه لهذا النوع من الأفكار يستخدم الأفكار البسيطة بطرق ثلاثة:

-إما عن طريق الجمع بين فكرتين بسيطتين أو أكثر في فكرة واحدة، وهذا ما يعرف بالتجميع أو التركيب، مثل فكرة إنسان.

-و إما عن طريق المقارنة بين فكرتين دون توحيدهما في فكرة واحدة، وهذا ما يعرف بالمقارنة و الأفكار الناتجة عن ذلك تعرف بأفكار الإضافة. مثل فكرة البنوة.

-و إما عن طريق تقسيم الأفكار و عزل فكرة عن كل الأفكار الخاصة الأخرى التي تصطحبها في الوجود الواقعي، و هذا ما يعرف بالتجريد، وهذه هي الأفكار المجردة⁽¹¹⁴⁾.

و من هذا نخلص إلى أن الفكرة سواء البسيطة منها أو المركبة هي حد أو أساس المعرفة، مع الإشارة دائماً إلى إرجاع المعرفة إلى الأفكار، و الأفكار المركبة إلى الأفكار البسيطة، و هنا يظهر دور الفكرة البسيطة و أهميتها. و المعرفة في الأخير تغدو - عند "لوك" لا شيء، بل هي فقط، إدراك للترابط و التوافق و الاختلاف و التنافر بين أفكارنا... و في هذا وحده تقوم المعرفة.

النظرية العلية والتمثيلية عند لوك:

يرى "لوك" أنه من الأهمية بمكان أن نفرق بين الأفكار في الذهن والأشياء في العالم الخارجي فما العلاقة بينهما؟ معرفة هذه العلاقة هي جوهر نظرية العلية في المعرفة والإدراك، وعلينا أن نحدد أولاً المقصود بالعالم الخارجي، إنه العالم الفيزيائي المادي وما يحتويه من موضوعات

¹¹³ - F. Compton. A history of philosophy. Op cit. p 90.

¹¹⁴ - John Locke. An Essay Concerning H.U. book 2. Ch xii. Sect 1. Pp 108-109.

فيزيائية خارجية، وهو مجموعة الموضوعات الخارجة عن الشعور الإنساني، والتي تدرس على أنها المسؤولة على إحداث التجارب الحسية للكائنات البشرية، وهذا ما يقصد به "ديكارت" حين يقول: «اعلموا إذن، إنني بالطبيعة لا أفهم قط إلهة ما، أو أي نوع آخر من القوى الخيالية، ولكنني استخدم هذه الكلمة لأدل على المادة نفسها من حيث أنني أنظر إليها مع كل الصفات.. مفهومة كلها مجتمعة»⁽¹¹⁵⁾. وبهذا نفرق بين المدركات في أذهاننا لهذه الموضوعات كعالم ذهني داخلي، والأجسام كعالم خارجي، وعلى الرغم من أن الفكرة وهي ذلك الموضوع الفوري والمباشر للإدراك قد تتشابه وتتماثل مع ذلك الموضوع الذي أحدثها، إلا أنها ليست هي الموضوع بعينه. و"لوك" كان واضحاً حين قال أن هناك الموضوع الفوري للإدراك أي الفكرة، وهناك الموضوع الفيزيائي الخارجي الذي لديه القدرة على إحداث الفكرة فينا، فما تحدثه الموضوعات الخارجية أو الأشياء من تأثير على أعضائنا الحسية هو الذي يحدث فينا الأفكار الحسية البسيطة المتعلقة بتلك الأشياء أو بكيفياتها، وهنا نكون أمام تفسير سببي علي للأفكار. وبهذا التصور يعد "لوك" من أنصار نظرية العلية في الإدراك (*Causal theory of perception*) «لأن نظريته تتطابق تماما والنظرية التي ترى أن مدركاتنا الحسية هي الآثار الذهنية التي تحدثها الموضوعات الفيزيائية على الحواس الجسمانية وهي علتها»⁽¹¹⁶⁾. والأفكار البسيطة، كما يعتقد "لوك"، لما كان العقل غير قادر على إحداثها، أو هدمها بذاته.. كان من الضروري أن تكون من إحداث الأشياء في تأثيرها على الذهن⁽¹¹⁷⁾، ويكون من الضروري وجود سبب أو علة خارجية هي التي أحدثت تلك الأفكار في

115 - ديكارت (رينيه). العالم أو كتاب النور، ترجمة أمل خوري. دار المنتخب العربي، بيروت ط1. 1999. ص:81.

116 - شاخت (ريتشارد)، رواد الفلسفة الحديثة، ترجمة أحمد حمدي محمود. مرجع سابق 1997. ص:135.

117 - Locke (John). An Essay concerning Human Understanding .op.cit. B:IV.ch:XI.sect:4.p:538 .

ذهني⁽¹¹⁸⁾. ولا يوجد شيء أكثر يقينية من أن الأفكار التي نستقبلها من الموضوعات الخارجية هي في أذهاننا، وهذه معرفة حدسية، لكن يمكننا أن نستنتج أو نستدل من تلك المعرفة الحدسية بوجود الفكرة في أذهاننا، وجود شيء خارجي عنا يتطابق ويتماثل وتلك الفكرة وهو مصدرها؛ وهكذا يتم إحداث الأفكار في أذهاننا عن طريق تأثير موضوعات فيزيائية خارجية فعلية، فنعتبر بذلك الموضوع الفيزيائي علة أو سببا لتلك الفكرة، وتلك الفكرة قد تتشابه مع الموضوع الذي أحدثها ولكنها ليست ذلك الموضوع بالذات، إنها صورته الذهنية، أو صورة لكيفية من كفيياته كالصلابة، والبياض .. أما كيفية انتقال ذلك المؤثر إلى الذهن فيتم بتأثير الموضوع الخارجي على الحواس، بحيث أن الأجسام لا تكون متحدة بعقولنا عندما تحدث الأفكار داخل أذهاننا، فتحدث حركة داخل الجسم، يقول "لوك": « من الواضح إذن أن حركة ما تكون بالضرورة مستمرة بواسطة أعصابنا، والأرواح الحيوانية، أو عن طريق بعض أجزاء الجسم إلى الدماغ، أو إلى مركز الإحساسات لتحدث هناك الأفكار الخاصة في أذهاننا عن تلك الأجسام»⁽¹¹⁹⁾. وصول التأثير إلى الذهن يحدث ما يعرف بالمدرک الحسي أو الفكرة، وهنا نميز مستويين من تأثير الأجسام على الذهن :

المستوى الأول هو ما يعرف بالمستوى الفيزيائي، بحيث لا يفهم تأثير الجسم على الحاسة إلا فيزيائياً على شكل موجات أو ذبذبات تنتقل عبر الفضاء لترتطم أو تصطدم بالحاسة. أما المستوى الثاني فهو المستوى البيولوجي فيظهر التأثير البيولوجي على السيالة العصبية وعلى مركز الإحساسات، أي على الخلايا المسؤولة على الإدراك.

¹¹⁸ - Ibid. B:II.ch:1.sect:5.P:538.

¹¹⁹ - Ibid. B:II.ch:VIII.sect:12.P:86.

"لوك" تحدث واستطاع أن يفسر كيفية انتقال تأثير الجسم إلى الذهن، واعتمد في ذلك على معطيات العلم المعاصر له في ذلك الوقت ، لكن مسألة كيف تُحدث العملية الجسمية انطباعات ذهنية أو أفكار، فهذا الأمر لم يحاول تفسيره، بل لقد ترك مسألة كيف تحدث ذلك دون بت (120).

تفسير "لوك" في الأخير لعلاقة الموضوعات الفيزيائية بالأفكار تفسير علي سببي لا يدع مجالاً للشك وعلى هذا الأساس يصنف ضمن أنصار نظرية العلية في الإدراك. لكن هذا الموقف لم يكن من إبداع "لوك"، بل قد سبقه في ذلك "ديكارت" مثلاً حين أشار إليه بوضوح في التأمل السادس من تأملاته الميتافيزيقية عندما يقول: «الواقع أنني إذا نظرت إلى ما يعرض لذهني من أفكار عن جميع هذه الصفات، التي وحدها كنت أحس إحساساً مباشراً حقيقياً، أجدني على صواب في اعتقادي أنني أحس بأشياء مغايرة كل المغايرة لفكري... أعني بأجسام تصدر عنها تلك الأفكار»⁽¹²¹⁾ كما يقر بوجود جوهر خارج أنفسنا، قادر على أن يولد فينا الأفكار عن الأشياء الحسية، وهذا الجوهر يقول "ديكارت" هو جسماني، لأن الله قد جعل فيّ ميلاً شديداً إلى الاعتقاد بأنها (الأفكار) صادرة عن الأشياء الحسية⁽¹²²⁾، وعن طريق ذلك أثبت "ديكارت" وجود علاقة سببية بين الأفكار الحسية و الأشياء الحسية من جهة، وأثبت من جهة أخرى وجود العالم الخارجي بعد إثبات الذات (الكوجيتو) والله ثم العالم الخارجي. وبعد أن أجاب "لوك" على كيف تحصل الأفكار ومصدرها وكان تفسيره سببياً، كان عليه أن يناقش كيفية إدراك الأجسام أو موضوعات العالم الخارجي. لا تتم عملية الإدراك للعالم الخارجي إلا من خلال الأفكار، إننا لا ندرك الأجسام في العالم الخارجي بصورة مباشرة وفورية، وإذا كانت هذه الأجسام تعد عللاً لما

120 - شاخت (ريتشارد)، رواد الفلسفة الحديثة، ترجمة أحمد حمدي محمود. مرجع سابق 1997. ص: 136.

121 - ديكارت (رينيه)، تأملات ميتافيزيقية، ترجمة كمال الحاج منشورات عويدات. ط3، 1983. ص: 223.

122 - المصدر نفسه، ص ص: 229-230.

نملكه من أفكار، فإن الأفكار بنظر "لوك" تمثل (*Represent*) فعلا الموضوعات الواقعية الخارجية، وتشكل روابط بواسطتها نعرف شيئا عن العالم الخارجي الفيزيائي⁽¹²³⁾، وهذا هو منطق ما يعرف بالنظرية التمثيلية للإدراك '*Representative Theory of Perception*'، التي تؤكد على ضرورة وجود موضوع وسيط بين الذات العارفة والموضوع المطلق الخارجي موضوع المعرفة، هذا الوسيط هو معطى فوري مباشر، وهو الفكرة، وبدونه يستحيل إدراك الموضوع. وتعود أصول هذه النظرية إلى فكرة الأنواع المرتبطة بفلسفة "أرسطو" والفلسفة الوسيطية، وإلى مفكري القرن السابع عشر الذين تكلموا عن الفكرة كموضوع للإدراك، والتي يفترض أن تكون في صلة أو تماس بالواقع الخارجي الفيزيائي. إنها بالأحرى تركيب من رؤى تاريخية مختلفة⁽¹²⁴⁾. وورثها "لوك" ليفسر بها عملية الإدراك.

لوك ومشكلة كفيات الأجسام: بحث "لوك" في الكفيات كان نقطة التقاء الفلسفة بالعلم
في القرن السابع عشر، فلسفة "هوبز" و"ديكارت" بعلم غاليلي و"نيوتن" و"بويل"، ولا ينفصل هذا البحث عن نظرية "لوك" العلية والتمثيلية في الإدراك. فنحن نتفاعل سببياً مع الموضوعات الفيزيائية للعالم الخارجي، فتحدث تغيرات داخل أذهاننا عن طريق الحواس، وما ينتج في أذهاننا يفترض أنه يمثل العالم الخارجي عن طريق فكرة التماثل أو التشابه. لكن فكرة التشابه هذه لا تفهم إلا من خلال فهم تقسيمه للكفيات. فالأولية تشبه إلى حد بعيد الأفكار التي نملكها عنها. أما أفكارنا الناشئة فينا من الكفيات الثانوية فليس بينها وبين الحقيقة الخارجية أي شبه على الإطلاق. أي لا يوجد في الأشياء نفسها ما يشبه أفكارنا.

¹²³ - Encyclopedia of Philosophy., Donald M. Borchert (editor in chief). V:5. Op.cit. P: 379.

¹²⁴ - Aaron. R. John Locke، op.cit. p:102.

لكن هناك أسئلة هامة وعويصة تتعلق بفهم نظرية "لوك" للكيفيات ومعرفتنا لها، وبتقسيمه لها. فما الضامن الذي نملكه على أن أفكار الكيفيات الأولية تشبه وتتماثل حقيقة مع الكيفيات الأولية التي أحدثتها؟ لماذا لا تكون الكيفيات الثانوية هي الأخرى أولية ما دامت مجرد قوى في الأجسام، هذه القوى هي الكيفيات الأولية نفسها؟ إن الصلابة هي من أفكار الكيفيات الأولية التي تقابل الصلابة كخاصية في الجسم أي أولية ولا تُفقد حتى وإن قمنا بسحق الجسم، أو قسّمناه إلى أجزاء متناهية في الصغر فإنها ستظل حاضرة. لكن ماذا عن تحويل الجسم من صلب إلى سائل هل سيظل يحتفظ بصلابته، أم أنه يتغير في ماهيته وحقيقته الأصلية؟ هل تبقى ثابتة أم أنها تتحول إلى كيفية أخرى⁽¹²⁵⁾؟ وماذا عن الحركة ككيفية أولية هل يوجد شبه بينها وبين الفكرة التي نملكها عنها؟

إن ما نستنتجه هو أنّ الإقرار بوجود كيفيات أولية حقيقية في الأجسام ومستقلة عن العقل، وهي التي تمثل حقيقة الموضوعات الفيزيائية، هو إقرار بوجود عالم مستقل عن الإدراك، ووجود مثل هذا العالم المستقل يبقي التساؤل مشروعاً عن كيفية معرفة عالم مستقل في وجوده عن الأذهان، وهذا ما يؤسس برأينا للنزعة الشكّية في المعرفة التي تكون موضوع الفصل الأخير في البحث. وهذه النتائج مثّلت بحق صعوبات في فلسفة "لوك"، أراد فلاسفة المرحلة الكلاسيكية من الإنجليز تجاوزها أمثال باركلي و "هيوم" لاحقاً.

فكرة الجوهر عند لوك:

فكرة الجوهر هي لا شيء، هذا ما اكتشفه "لوك"، إنّها فقط افتراض لا نعرف ما هو. وكل ما تقدّمه لنا الحواس عن الموضوع الخارجي مثلاً هو جملة الكيفيات أو الأعراض، أمّا الحامل لها

125 - انظر : مئى (كريم)، الفلسفة الحديثة عرض نقدي ، مرجع سابق، ص ص:164-165.

فهو شيء غير معروف ومفترض لحمل هذه الكيفيات . وبهذا، الجوهر معطى غير تجريبي، أي أنه غير مؤسس تجريبياً. لكن لماذا يفترض هذا الشيء المجهول، أي الجوهر؟

إذا كانت الكيفيات الثانوية كما مرّ بنا، كاللون والذوق والرائحة، بنظر "لوك"، تُنسب إلى الصفات الأولية، لأنها مجرد قوى في الأجسام لها القدرة على إحداث إحساس فينا بهذه الكيفيات و بواسطة الكيفيات الأولية، فإنّ هذه الأخيرة، أي الكيفيات الأولية كالامتداد والصلابة، ولا يمكن أن نتصورها قائمة بذاتها، ولا نتصورها بدون شيء يحملها أو يسندها، ولذلك نتصورها موجودة في، أو مرتكزة على موضوع عام، هذا الموضوع أو الحامل للصفات هو الذي يطلق عليه عادة اسم الجوهر والذي يعني (الواقف تحت)، أو الحامل⁽¹²⁶⁾. وكما لا نتصور قيام الكيفيات الأولية بذاتها، لا يمكن أن نتصور قيام الأفكار البسيطة، التي أنتجتها هذه الكيفيات الأولية البسيطة قائمة بذاتها، إذ من الممتع عن الذهن أن يتصور أفكار الإحساس الأولية لجسم ما متقومة بذاتها ، وبدون موضوع تكون مستندة إليه، ممّا يجعلنا نتصور كل تلك الصفات وكذا الأفكار التي أحدثتها تلك الصفات شيئاً واحداً ولفظ واحد.

وهكذا يبدأ "لوك" من مقدمات ابستمولوجية تتعلق بالمعرفة ومصدرها وحدودها و يقينياتها، لينتهي إلى أفكار ميتافيزيقية من قبيل فكرة الجوهر المادي، ممّا يترتب عن هذا نتائج خطيرة تدحض انسجام النسق الفكري الذي بناه كله. وتترتب عنه عناصر تهدد الفلسفة والدين معاً. ذلك أن الاعتقاد بجواهر مادية في الطبيعة يعني استقلال هذه الموضوعات الفيزيائية الخارجة عن الذات المدركة، لأن الجوهر في تعريفه التقليدي ما هو قائم بذاته ولا يحتاج إلى غيره في وجوده،

¹²⁶ -Locke (John) .An Essay concerning Human Understanding .op.cit. B:II.ch:XXIII.sect:1.pp:208 -209.

وبالتالي، لا يكون هذا العالم في متناول العقل البشري في معرفته من جهة، ومن جهة أخرى يكون مستغنياً عن كل توجيه حتى ولو كان إلهياً. وهذه إحدى المثالب التي وقع فيها "لوك" بحسب الفلاسفة بعده الذين هم من نفس الاتجاه، وحاولوا تجاوزها.